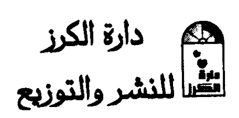
قصص قصيرة

الحب والحزن والحنين

سامي فريد



دارة الكرز
للنشر والتوزيع
Email:darkaraz@yahoo.com
١٧ ش منشية البكري- مصر الجديدة
ت: ٠٢/٤٥٥١٣٠٤

الكتاب: الحب والحزن والحنين.

المؤلف: سامي فريد.

الناشر: دارة الكرز للنشر والتوزيع.

الطبعة الثانية: ٢٠٠٦

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٣٩٥٨

الترقيم الدولي: 977-6156-32-0

طبع في القاهرة

كل الشكر والتحية

إلى صديقي الفنان **إبراهيم أصلان** الذي لولا غضبته لّما علم مني في سؤال عارض لحظة التقينا بمعرض الكتاب ذات يوم منذ خمس سنوات خبر تأخر الكتاب في هيئة قصور الثقافة عند الروائي **محمد البساطي** فوعد بالتدخل ثم هاتفني في اليوم التالي قائلا إنه جرت مكالمة بينه وبين البساطي اعتذر فيها الأخير عن التأخير بسبب زحام الأعمال ووعد بسرعة النشر.

وإلى صديقي الفنان **محمد إبراهيم مبروك** الذي تلقيت منه تهنئة تليفونية من الشارع وكنا صباح يوم عيد بنزول الكتاب وأنه معه شخصياً.. إن سعادتي بالصديقين تفوق سعادتي **بالحب والحزن والحنين**. والعجيب أن الكتاب اختفى خلال أيام حتى أن توزيع الأهرام بعد سؤال المخازن عن أي مرتجعات كان رده أنه لا مرتجعات مطلقا لهذا الكتاب لهذا كانت الطبعة الثانية.

سامي..



شكر خاص

للفنانة القديرة نجوى العشري على ما تقدمه من الدعم الأدبي لدارة الكرز وما تقدمه من فنها وأغلفتها ومنها لوحة غلاف هذا الكتاب وهي إحدى لوحاتها المتميزة ككل أعمالها فكل الشكر والتحية والتقدير لشخصها ولفنها

دارة الكرز

عيون الطفل

أو ..

«الحب والحزن والحنين»

تشهد الحركة الأدبية المصرية ارتدادا عاما إلى الذات، كموجة جزر هائلة باتساع الساحل كله. ولا يقتصر هذا على الأجيال الجديدة من الكتاب، بل يمتد من الأعمال الأخيرة لشيخ الرواية المصرية نجيب محفوظ حتى الثمانين من أمثال يوسف أبو رية ورفاقه، شاملاً الأجيال الوسطى، ونخص منها جيل الستينات، فإلى هذا الجيل، وهذه الظاهرة، تنتمي مجموعة «الحب والحزن والحنين» لمبدعها سامي فريد، أحد كتاب جيل الستينات المخضرمين.. والمجهلين للأسف.

وإذا كان الانسحاب للذات يتجلى أشد ما يتجلى في الشعر (ربما لأن الشعر بطبيعته نوع أدبي يغري بالذاتية وضمير الأنا) فإنه اتخذ في القصة والرواية منحى خاصا: وهو الارتداد لمرحلة الطفولة.. نجد هذا في كثير مما كتب

نجيب محفوظ، بالذات منذ «صباح الورد (١٩٨٧) ونجده أيضاً عند الكتاب الجدد على الأخص يوسف أبو رية.

وعنـد رفـاق سـامي فريـد الـستينيين، يمكـن الاستشهاد بالعمل الأخير للبساطي «ويأتي القطار» وهـو عبارة عـن لوحـات منفـصلة متـصلة مـن سـيرته الذاتيـة خاصة طفولته في القرية، و«ترابها زعفران» للخـراط ومـا ينشره حاليا من لوحات مـستمدة مـن ذكريـات الطفولـة على صفحات الملحق الأدبي للأهرام.

وهاهي «الحب والحزن والحنين» تمثـل سـامي فريـد الجد طفلا مرتعبا من عفاريت الإنس والجـان وهنـا يطـرأ سؤال: إذا كان من الطبيعي أن يكتب نجيب محفوظ وهـو في الثمانين مستقيا مـن مـداد الطفولـة فـما الحـال فـيمن لم يبلغوا الأربعين؟ أهي الشيخوخة المبكرة؟ أم هو الهـروب من عالم الخبرة الخشن على أن الإجابـة عـن هـذا التـساؤل ليست وظيفة النقد بل علم الاجتماع.

ويكفي الراصد الأدبي أن يسجل الظاهرة ثم يلتفت بعد ذلك للقيمة الجمالية للعمل بصرف النظر عن مادته.

فـ«الحب والحزن والحنين» تسقيك من الجمال مثنـى وثلاث ورباع، وعلى الطريقة الستينية فالكاتب – كلاعب العرائس – يده خفيـة، لا يتـدخل في الحـدث بـالتعليق أو باتخاذ جانب شخـصية ضـد أخـرى وهـو راو مقتـصد في كلماته، لا يزينها بـالنعوت التـي قـد تكـشف موقفـه مـن الحدث أو الشخصيات وهو في بعض القـصص رسـام أو مصور سينمائي أكثر من حكـاء.. فـبعض قصـصه ليـست حكايات

بل شذرات من الحياة مخبأة المغزى، قد تـوحي لـك بمعنى ما، أو شعور ما، تماما كقطعة الموسيقى

على أن سـامي فريـد لـيس حـداثيا في كـل قـصص مجموعتـه الـشجية فـإذا كـان «الطفـل» يطـل مـن معظـم صـفحات «الحـب والحـزن والحنـين» تـسع قـصص مـن مجموع ثـلاث عـشرة فـإن هـذه القـصص التـسع تنقـسم أسلوبيا إلى ثلاث مجموعات متساوية في العـدد متباينـة في الصنعة تتراوح الكتابة فيما بينها بين الكلاسيكية والحداثة، بين الحكاية واللحظة، بين السرد والرسم.

فالمجموعة الأولى (بدلة ضابط - وقائع يوم الشجار - أشجار كبيرة) هي أكثر قصص العمل «ستينية» فهنا نجد القص مختزلا شحيحا بالكلمات ميالا للإيحاء وإخفاء الرمز بدلا من إبرازه، و«الحدق يفهم» كما نجد في رمز بذلة الضابط في القصة الأولى ولعبة العساكر الخشبية في الثانية.

أما المجموعتان الثانية والثالثة فتشتركان مع الأولى من حيث رصد الحياة بعيون طفل، ولكنهما تقنيا أقرب إلى الكلاسيكية والمجموعة الثانية بالذات.

يأجوج ومأجوج مشاهد من الخوف القديم - «عينان واسعتان» أكثر المجموعات تصريحا وأقلها إيحاء، حتى أن الرمز في يأجوج ومأجوج يكاد يكون شفافا وتمتلئ هنا عيون الطفل رعبا

ويسيل دمه في القصة الأخيرة «عينان واسعتان» من صدمة الارتطام بخشونة الحياة، وخطف براءته مع الطاقية التي جرى بها أحد الأشقياء مختفيا في زحمة العيد.

وتستمر نغمة فقدان البراءة عبر المجموعة الثانية، نسمعها تتردد في آخر قصص العمل «الأطفال يلعبون في الحديقة» التي تشكل مع شقيقتها «اللا واللن» و«الحب والحزن والحنين» ثلاثية عالمها شبه روائي تعمره نفس الشخصيات: الطفل وأبوه رقيق الحال وعم غني تطغى شخصيته على الأب وهي من ناحية الأسلوب وسط بين قطبين متجاذبين نرى بها سمات من المجموعة الأولى ويغلب عليها الحكي كالثانية.

وبعد فإن هذا التقسيم للإيضاح والتحليل وليس في متن العمل نفسه، وقد يكون مبتسرا بعض الشيء فإن «عينان واسعتان» مثلا تنتمي من حيث فكر الرمز والسرد للمجموعة الأولى.

ولكنها من حيث أنها حكاية أكثر اقترابا من باقي القصص، ولكن ما العمل والأدب الجميل كائن دافئ الدماء يظلمه المبضع البارد للتشريح النقدي؟

وأخيرا فإن «الحب والحزن والحنين» مثال على الجمال الضائع في مولد اختلط فيه الحابل بالنابل نداء ناي

شجي في ضجة طبول ونحاس ومن يدري ربما كان الجمال هو ذلك الطفل التائه المرتعب الـذي خطفـت العفاريـت طاقيته في الزحام.

بهاء جاهين

بذلة ضابط!

فوق السطح جلست أمي تقلب حبات اللب الأسود على نار وابور الجاز أمامها..

كانت شمس المغرب تلملم صفرتها من فوق أسطح البيوت وحبال الغسيل فيما كانت السماء تفتح صدرها لاستقبال الليل الداخل بظلمته وعفاريت حاراته المنتظرة خلف الأبواب لحظة انطفاء نور الشمس.

حملت طوق العجلة الصدئ ساخناً لا يزال فوق كتفي ووقفت قبالتها..

رفعت وجهها نحوي ومازالت تردد أغنية ليلى مراد «رايداك والنبي رايداك»..

رفعت حاجبيها وتهللت مبتسمة لرؤيتي فقلت: أريد أن ألبس بذلة الضابط.

أشارت إلى الطوق المعلق في كتفي: قلت لك اترك هذا الطوق هناك. أردفت مقطبة: انظر إلى كفيك الآن!

قلت متحدياً: سأغسلها! هل ألبس البذلة الآن؟!

أشارت بهزة من رأسها نحو الداخل وابتسمت موافقة فانطلقت أضع الصندوق تحت الحوض وأمد يدي لأفتح صنبور الماء، فيما كانت كلمات الأغنية تصل إلى أذني الآن «أحلف لك بدمع العين»..

خرج خالي إلى السطح ووقف خلفها. خلع طاقيته القطنية ومسح بها رأسه ثم أعادها وهو يقول: الليلة عندما يأتي أكلمه. أنت وأشار نحوها. لا تتدخلي في الكلام إطلاقاً فتفسدي كل شيء. هذا الوضع غلط ثم سعل. الحال هكذا لا يحتمل!

أسرعت التصق بظهر أمي.

خرجت زوجة خالي ووقفت إلى جواره وهي تجفف صحناً وقالت: صح! الغرفة كما تعلمين يا أختي لا تتسع للجميع، والحال – ومصمصت شفتيها – كما ترين، وأنتم.. ثم هزت كتفها..

التفت إليها خالي ينهرها: اسكتي أنت.. هذا كلام بيني وبينها..

مد كفه الكبيرة يربت فوق خدي فدفعتها بعيداً.

دار حتى وقف أمامها. نظر إليها طويلاً ثم قال وهو يهم بالجلوس فوق طرف الحصير: أنت فاهمة طبعاً ولن تغضبي..

نكس رأسه وراح ينكت في الحصير أمامه..

قالت أمي: طبعاً طبعاً، ورفعت عينيها إلى السماء التي أظلمت الآن ثم نكستهما إلى الأرض ومدت يدها تضمني إلى صدرها..

سرحت بعينيها بعيداً في عمق الغرفة خلفها..

كان المصباح الكهربائي يرسل نوره الواهن فوق المنضدة الصغيرة بنية اللون التي امتلأ سطحها بكتب المدرسة فيما كان ثلاثة من أبناء خالي المتحلقين حولها يختلسون النظر إلينا ويتبادلون الركلات تحت مفرش المنضدة متضاحكين في خفوت.

مالت أمي تحملني فيما هي تهم بالوقوف. نظر إليها خالي. وضعت إصبعها تحت ذقني وهي ترفع وجهي إليها وقالت وفي عينيها شيء يلمع: الآن تسرع بارتداء

بذلتك.هيا.. ثم أنزلتني. وقفت أمامها متردداً. رفعت صوتها: الآن سنعود. قلت وأنا أهم بالبكاء: سيضربني.. فيما كانت حبات اللب الأسود تحترق الآن فوق النار!

وقائع يوم الشجار..!

لم أنم تلك الليلة..

...

جلست متربعاً في الفراش أفكر في شكل الساكن الجديد الذي قالوا إنه سيقيم في الشقة الخالية فوق شقة «ملكة»..

في الصبح..

كنت وبعض الرفاق ننتظر وصوله، ولما تأخر، لعبنا قليلاً ودرنا حول مربع المباني نتراكض لنرى من منا يفوز في السباق.. في الدورة الأولى فاز على السوداني..

وفي الثانية.. سبقه فوزي.. واحتج على فنشب شجار تدخلت لأوقفه لكننا في لحظة كنا نقفز كدجاجات مذعورة عندما كبست علينا سيارة نقل الموبيليا الكبيرة وعليها رسم الجني بذيله الطويل وقرنيه المنتصبين فوق رأسه..

إلى جوار الحائط التصقنا نرقب العربة.. وانفتحت بعض النوافذ فوقنا أطلت منها رءوس نساء وأطفال كثيرة راحت تتابع المشهد في فضول بينما انهمك العمال في إنزال قطع الأثاث وحملها إلى الشقة الجديدة..

من كابينة السائق هبط بقامته القصيرة ووجهه الجامد ورأسه الحليق ووقف يتفرس فينا فترة ثم مضى يتبع الرجل ذا المعطف والطربوش صاعدين إلى فوق ومن خلفهما سارت امرأة وفتاة وصبيان يكبرانه سنا وشاب يرتدي بذلة فاتحة اللون خمنا انهم اخوته وأمه..

قال ابراهيم مندفعاً.

«لن يلعب معنا»..

ورد سعيد

«سنرى»..

بعد قليل هبط يحمل في يده صندوقاً ووقف قبالتنا.

قلت:

«ما اسمك؟»

قال:

«ابراهيم».

قلت مشيراً إلى صاحبي.

«وهذا أيضا اسمه ابراهيم».

قال متحدياً

«أنا أكبر منه.. أنا عندي عشر سنوات».

تقدم إليه إبراهيم يرد على التحدي.

«وأنا عندي ستة وأذهب إلى المدرسة.. هناك».

وأشار بيده ناحية السوق..

قال:

«وأنا سأدخل المدرسة هنا.. أبي قال هذا».

سألته:

«ماذا يعمل أبوك؟»

قال:

«موظف في الحكومة.. يذهب كل يوم الصبح له مكتب فيه موظفون كثيرون.. وأنت؟»..

قلت:

«أبي معه فلوس كثيرة تأتي من البلد».

فتح الصندوق وانحنى يخرج ما فيه:

قال إبراهيم:

«لن نلعب معه».

أضاف وهو يجذبني.

«تعال نكمل السباق».

لكنني تسمرت في مكاني أراقب ما يفعل.

كان يخرج من الصندوق قطع العساكر الخشبية المصقولة ويرصها إلى جوار بعضها أمام الجدار..

تراجع إلى الخلف عدة خطوات ونظر إلينا ثم رفع الكرة الخشبية في يده وقذفها إلى أعلى عدة مرات وانحنى يصوبها تجاه العساكر. فأسقط عددا منها راح يعيد رصها من جديد ووقف مرة ثانية يقذف الكرة أمامنا ويلتقطها ثم استدار فجأة نحونا يسألنا:

«من يلعب؟».

تقدم سعيد خطوة..

لكن نظرتي أوقفته..

مد يده بالكرة نحو سعيد مشجعاً فتقدم يتناولها منه.. في نفس اللحظة هجم إبراهيم صاحبي عليه فأوقعه أرضا ونشب بينهما عراك شديد جرح فيه صاحبي إبراهيم وتمزق جلبابه وأصيب سعيد بجرح في رقبته ونزف بعض الدم من أنفه..

وضع سعيد كفه تحت أنفه ورأى الدم فصرخ وهجم على إبراهيم صاحبي يضربه في وجهه فألقى على السوداني نفسهِ عليه يمنعه وراح فوزي يسحب صاحبي إبراهيم بعيداً وهو يقاومه ويركل الهواء بقدميه ووقفت أنا أنظر إلى إبراهيم متحدياً ودمي يفور من الغيظ بينما كان هو يجمع قطع العساكر ويضعها في الصندوق..

....

في العصر..

عندما أطل نصف قرص الشمس الأصفر من خلف مئذنة سيدي المنيدي ذهبت إلى إبراهيم صاحبي في الورشة التي يعمل فيها أبوه..

وقفت بعيداً أبحث عنه..

كان يجلس منزوياً في أحد الأركان المظلمة..

أشرت إليه ليخرج.. لكنه ظل في مكانه فمشيت إلى الشارع العمومي واشتريت علبة سجائر لأبي وعدت أقف أمام الورشة وأشير إليه..

تلفت حوله ثم قام متسللاً يتبعني..

سألته بعد أن ابتعدنا:

«الحاج ضربك؟»

هز رأسه:

«ومنعني من الخروج»..

قلت وأنا أكذب.

«أبي سيشتري لي علبة بها عساكر خشبية أحسن من علبته»..

قال متوعداً:

«سنخاصم سعيد وإبراهيم».

سرت إلى جواره صامتاً.

استوقفني يسألني وهو يهز يدي:

«أليس كذلك؟».

أومأت برأسي موافقاً..

...

في المساء..

كان عبد العال يمرق من أمامنا فوق دراجته متحدياً يسخر منا..

وقفت أنا وصاحبي إبراهيم أمام بابنا نرد عليه التحدي بنظرة متحفزة.. وقف سعيد وإبراهيم أمام المنزل المقابل يراقبان الموقف وبينهما مسافة بينما كان عبد العظيم أفندي يقف في شرفة بيته وقد خلع جاكتة بيجامته ممسكاً في يده خرطوم الماء يرش به تراب الحارة في ذلك المساء الصيفي الساخن..

أشجار كبيرة!

هل يقول الماء شيئاً لا أسمعه؟!..

.....

.....

مياه كثيرة مرت تحت الكوبري متدافعة متراكضة أكاد أسمع وشوشاتها الضاحكة.

دفعت رأسي بين فتحات السور الحديدي. كانت رائحة الدهان الأخضر الداكن مختلطة بالتراب المندي وركود السنوات الطويلة تقتحم أنفي. ملت برأسي إلى أسفل أحدق في الدوامات الصغيرة التي تدور حول قواعد الكوبري ثم تنطلق مواصلة رحلتها حين هب فينا صوت نوال الضاحك ينادينا:

- نتسابق؟!

صاحت تحية وهي تركض أمامنا فوق الأسفلت اللامع:

- أنا أسبقكم جميعاً:

فانطلقنا جميعاً خلفها وزياطنا يملأ مداخل الحي الهادئ في تلك الفترة من الظهيرة.

في الشارع الخالي إلا من الأشجار الكبيرة التي تقف على جانبيه كما يصطف عساكر المركز خلف وابور النور ومطحن خلف كل صباح يربشون بعيونهم النعسانة في عين الشمس توقفنا..

وقال سيد الذي ينقل لنا دائماً أخبار الكبار وهو يشير إلى أعمدة النور إن بها عيونا سحرية تطل علينا وتنقل صورنا إلى داخل البيوت المدججة بالحرس والسلاح. ثم رفع إصبعه أمام فمه «هش ش ش» مشيرا إلينا أن نصمت فانكمشنا وقد بدأ فأر الخوف يلعب داخل صدورنا.

قالت نوال وأصابعها تتسلل إلى كفي أنها خائفة!

قلت وقد جف ريقي: الرجال لا يخافون، فازدادت التصاقا بي.

أشار سيد لنا أن نتبعه، ومضى أمامنا وهو يقول هامساً: الأشجار تحجبنا عن عيونهم السحرية.. سيروا خلفي تحت الأشجار واحنوا ظهوركم..

سرنا حتى نهاية الشارع، وعبرت أمامنا سيارة مسرعة ثم دراجة يركبها جندي حراسة فأسرعنا ندور حول ناصية الحديقة محتمين بسورها الحجري العالي.

سألنا سيد وهو ينظر في عيوننا: أحضرتم الطوب؟

ثم أردف بصوت فيه حدة محذراً: أم جئتم للفرجة كالمرة السابعة؟! مددنا جميعاً أصابعنا داخل جيوب جلابيبنا نتحسس قطع الطوب التي التقطناها من حارتنا والحواري حولها في طريقنا إلى هنا فهز رأسه بسرعة بينما لمعت في عينيه أمارات جد بدت لي أكبر كثيراً من سنوات عمره العشر.

قال وهو يتهيأ للجلوس فوق حافة الرصيف: ننتظر هنا حتى يحل الظلام ثم نضرب زجاج الاجزاخانة ونعود أسرع من الريح.

كالأمـــر النهـائي واجـب التنفيـذ هززنـا رءوسـنا موافقين وقلوبنا تكاد تنخلع من الإثارة..

قـال رمـضان الأسـمر ورأسـه الحليـق مـنكس في الأرض: الاجزاخانة لا..

التفتنا جميعاً نحوه.

قال ومازال يحملق في الأسفلت الأسود أمامه:

خالي يعمل في اجزاخانة.

صمت برهة ثم أدار وجهه فينا: يقول إن فيهـا دواء يشفي كل الأمراض!!

أطل الحذاء الحريمي بكعبه العالي من بـاب الـسيارة اللامعة كمرآة ثم هبطت الـسيدة البيـضاء فانـداحت مـن حولنا دوائر من عطر مـسكر. نهـضنا نفـسح الطريـق ثـم هبط خلفها الولد واندفع يلقف كفها الممتدة نحوه وعينـاه المتسعتان خوفا لا تفارقـان وجوهنـا الشاخـصة نحـوه في دهشة!

وثبت خلفه وسرت أقلد خطواته ساخرا بيـنما كـان الأولاد والبنات يتلوون من الضحك. التفت الولد خلفـه

ثم قفز خطوتين للامام صائحاً في فزع: مـامي! في صـوت بدا لي كصوت زمارة الريس بيومي كمساري الترام!

اتلفـت الـسيدة غاضـبة تنهزنـا في حـدة فانطلقنـا نركض ضاحكين بينما رحت أنا أحجل فوق ساق واحـدة وأدور حول نفسي مقلداً زمارة الكمـساري مـصفقا عـلى الواحدة: مامي.. مامي!

كـان الليـل قـد حـط وحـشته الآن عـلى الـشوارع والشجر فأضاءت شبابيك العمارات.

أحسست بجسم نوال إلى جواري يزداد التصاقا بي.

قالت وأنفاسها تطوف بوجهي: نعود الآن!

هززت رأسي وأنا أبلع ريقـي: نعـود! ثـم سـحبت كفها ورحت أجرها خلفي مبتعـداً وقـد اختفـى كـل أثـر للشلة.

سرنا وصـوت خطواتهـا المتعثـرة خلفـي لا يفـارق سمعي. كانـت مـصابيح النـور مـن فـوق رءوسـنا تبـدو كعفاريـت طويلـة تطـل بوجوههـا المتربـصة توشـك أن تنقض علينا من أعلى.

طافت بنا نسمة نيلية باردة فأسرعنا نستحث خطواتنا نحو الحارة التي لابد أن شخيرها قد ارتفع الآن بعد أن أطفأت كل مسارجها في الكوات الصامتة في انتظار اندلاع نور الصبح الذي يهب علينا من خلف العمارات العالية عبر مياه النهر التي لا تكف عن الاندفاع للأمام.

الـ «لا».. والـ «لم»!

مات الحاج توفيق..

ومات بعده عباس..

وظلت في مكانها على الجدار صورتاهما اللتان راح السواد يزحف على حواف ورقها المصفر..فيها.. يجلس الحاج توفيق مسندا راحتيه مطمئنا فوق ركبته ويقف عباس إلى جواره شادا قامته مثبتا نظره أمامه في صرامة جاهد حتى تبدو حقيقية..

......

......

عند الانصراف تصافحوا..

تبادلوا بعض الكلمات قبل أن يغيبوا داخل سياراتهم التي ابتلعها وابتلعهم معها ظلام الليل..

أغلقت النافذة.

قلت لأمي بعد أن صرنا وحدنا إننا يجب أن نفكر جيدا فيما يقولون وشرحت لها كل شيء بحماس من يستعد للسباحة في أنهار اللبن والعسل..

راحت تستمع لما أقول دون أن تلتفت.

وضعت كفيها في حجرها ونكست بصرها إلى الأرض..

سألتها رأيها..

سددت نحوي نظرة ثابتة ولم تجب..

قلت إنني عشت حياتي منتظراً يوما كهذا ولا بأس من أن أظل منتظراً.. وسأنتظر.

عند الظهر وصلت برقية أخي الأكبر.. وفي المساء وصل أخي الأصغر.. تعانقنا وربت فوق ظهره فضمني إليه بشدة. على مائدة العشاء لمحت في طرف عينه لمعة مؤيدة فابتسمت وهز هو رأسه ثم عاد إلى طعامه.

قبل أن نغادر المائدة جاءت برقية أخي الأكبر الثانية.

طوتها أمي ووضعتها في صدرها ثم وقفت أمام النافذة صامتة..

قال أخي الأصغر وهو يطفئ سيجارته إنه يرتاح لفكرة البيع ويترك لي أنا التصرف.

دار في الغرفة دورة كاملة ثم أقبل نحوي. مد ذراعيه يضع كفيه فوق كتفي وهو يقول إننا يحسن أن نسرع في الانتهاء من الموضوع كله حيث لا تتسع إجازته القصيرة للكثير وأنه من الأفضل أن يتم كل شيء في حضوره وقبل سفره..

لا..

صرخت أمي وهي تقف بيننا ثم أسرعت بالانصراف..

مط أخي الأصغر شفتيه ثم ألقى بجسمه على الفوتيل القديم وفرد ساقيه ولم يتكلم..

نقرت على الباب مستأذنا..

كانت في الداخل تبكي..

التفتت نحوي صامتة فأسرعت أجلس بين يديها..

تفرست في وجهي طويلاً.. أراحت كفها فوق كتفي وتنهدت. قلت إنني لا أحب أن أراها تبكي فأطرقت برأسها إلى الأرض.

مسحت دموعها ثم رفعت نحوي عينين متسائلتين.

قلت إنها يجب أن تفهم أن البيع يعني أن يكون لي بيت وزوجة وأولاد.. حياة يا أمي.. أتفهمين؟ حياة..

قالت إن البيع سيكون نهاية حياتها هي وأننا لا نفهم.. لا نفهم.. ثم عادت إلى إطراقها..

.....

كان الحاج توفيق يجلس على الكنبة البلدي مستندا بمرفقه على الوسادة مائلاً بجسمه نحو عباس. خلع الحاج توفيق طاقيته ثم دورها بين أصابعه وهرش رأسه ثم عاد وضع الطاقية فوق رأسه فيما كان عباس منهمكاً في مراقبة كنكة القهوة فوق موقد السبرتو محاذرا أن تفور. رفع عباس الكنكة في توقيت مناسب ثم أطفأ الموقد وصب للحاج توفيق فنجانا ولنفسه فنجانا آخر راح يرشف منه ببطء بينما هو يستمع للحاج توفيق باهتمام

شديد مومئا برأسه مؤمناً على ما يقول فيها كانت ظلال الأشجار تمتد أمامها تفرش الأرض المرشوشة التي تدحرجت فوقها الأوراق الصفراء أمام نسمات العصر التي بدأت تطوف بالمكان..

رفع الحاج توفيق رأسه وأدار عينيه حوله ثم سأل عن الأولاد..

هب عباس ينادي علينا فتركت ذراع الطلمبة وركضت مبتعداً قبل أن يراني وقد ابتلت ملابسي كلها لكنها ركضت خلفي حتى أمسكتني وعادت تجرني وتوقفني أمام عمي الذي راح يمسح الماء عن وجهي ورأسي بكفه العريضة طالبا من ابنته أن تأتي بالمنشفة الكبيرة لتجففني وتبدل ملابسي حتى لا أصاب بالبرد..

كنت أكره نظرات أبناء عمي الباردة غير الودودة ولا أحب كلامهم عن غناهم وفقرنا.. دفعت ابنة عمي فجأة وانفلت أعدو إلى أمي في غرفة الخبيز لألقي بنفسي في حضنها مراقبا أرغفة العيش الساخنة وهي تخرج من الشاروقة ومن داخلها ألسنة النار تتراقص حمراء وصفراء

وأسمع حديث المرأتين الذي لا يتوقف، مستكينا الآن في حجر أمي مستمتعا بالدفء ورائحة الخبيز.

رفعت وجهي الساخن إلى أمي قبل أن يدهمني النوم أسألها متى سنرحل.. سألتها زوجة عمي ماذا أقول فردت أمي وهي تهزني في حجرها إنني يجب أن أنام الآن ثم حملتني فوق كتفها خارجة وقد ألقت على ظهري طرحتها السوداء..

.....

كركرت العربة فوق الطريق الترابي المظلم وراح جسمي يهتز مع اهتزازات العربة فأزداد التصاقا بأمي بينما جلس أبي أمامنا إلى جوار السائق محتضنا أخي الأصغر الذي راح في نوم عميق فيما كان أخي الأكبر يدفع رأسه خارج النافذة.

كان عمي توفيق مستنداً إلى قائم الباب يلوح لنا بيده من بعيد وقد انسكب من خلفه شريط من الضوء حمل ظله أمامه حتى ذاب في سواد الليل خارج الدار.

من خلفه أطلت زوجته تنادي على أولادها ثم أسرعت بالدخول

كنت أراقب المشهد من زجاج العربة الخلفي.

أسرعت أنزلت رأسي حتى لا يراني الأولاد ورحت فيما أنا منكمش على المقعد الخلفي أفكر في البيت وصندوق لعبي الذي أضعه تحت سريري وأصحابي الذين ألعب معهم عصر كل يوم بعد عودتي من المدرسة..

....

....

مزقت برقيتي أخي الأكبر متجاوزاً نظرات الدهشة في عيني أخي الأصغر ورحت أضم أمي إلى صدري في قوة قائلاً وأنا أربت فوق ظهرها إنني مثلها أيضا لن أبيع..

رفعت عيني إلى ا لصورة القديمة..

كان الحاج توفيق ما يزال جالسا يبسط راحتيه فوق ركبتيه وقد اعتراه بعض القلق.. في حين خيل إلي للحظة أن عباسا كان يبتسم!!

يأجوج.. ومأجوج!

ذو القرنين يحتاج المساعدة. لابد أن جيشه الجبار قد أصبح الآن مرهقاً وجنوده يسقطون من التعب. لا ينبغي أن يتركه وحيداً. سيذهب إليه.

يزحف في حضن أبيه يسأله بصوت هامس يخنقه الخوف أين يجد ذا القرنين!

من؟ يرد الصوت الغليظ النائم ثم ينقطع الكلام وتجثم الظلمة..

....

....

لليل في الخارج صوت ثقيل عندما يعربد في دروب البلد لا يجرؤ مخلوق على منعه.. يسمع وقع خطواته في الحارات وخربشة أظافره على الأبواب والحوائط ودبيب أقدامه فوق السطوح..

في الليل يأتون. نعم سيأتون.. هو يعلم لأنهم في النهار يكونون قد ثقبوا الحائط واندفعوا من خلاله وحوشاً قصيرة مشعرة بأنياب كالسكاكين وعيون تشتعل فيها الرغبة في الارتواء من الدم. ينكمش على نفسه. يريد أن يوقظ أباه الغارق في شخيره المطمئن. يريد أن أن يوقظ البلد كلها حتى تستعد قبل أن يصلوا. كم يا ترى تبلغ المسافة بيننا وبينهم؟ كبيرة هي جدا وطويلة لكنهم لا يتعبون ولن يتوقفوا. هم هناك في آخر الدنيا خلف السد الذي بناه الملك الطيب القوي لكنه يكاد يسقط الآن.. ألسنتهم كالمبارد تظل تلعق الحائط حتى يصبح في سمك ورقة سيجارة شيخ الجامع عندما يمد يده إلى علبته الصفيح الصفراء في جيب صدريته يخرجها ويفتحها في بطء ليخرج منها دفتر البافرا يسحب منه ورقة يمسكها في حذق بأطراف أصابعه الطويلة المرتعشة ويضع داخلها شريط الدخان ثم يطويها في عناية ويرفعها إلى فمه منحنيا عليها وطرف عينه يرقب الطريق بينما هو يبللها بطرف لسانه. يبصق جانباً ثم يدفع بطرفها إلى فمه فيما يعيد العلبة إلى جيبه ويروح يفتش عن علبة الثقاب في باقي الجيوب..

اليوم ليس يوم الجمعة..

لم يقرأوا السورة..

أي الأيام هذا؟ أي يوم كان الأمس؟ يريد أن يسأل أباه. تردد. رفع رأسه في بطء حذر ينظر إلى أمه. كان وجهها الهادئ قبالة الحائط فيما كانت ذراع أبيه قد طوقتها فأخفت رقبتها وجزءاً من كتفها..

في سرسوب الضوء القادم من خلال فرجة الباب يرسله المصباح في الصالة راح يقلب عينيه في عتمة الغرفة.. على السقف رأى صورا تشبههم.. لابد أنهم سود قصار القامة لهم حوافر، أعدادهم كثيرة تزيد على الألف ألف يغطيهم شعر كثيف خشن أنيابهم مسنونة وألسنتهم خشنة أشد خشونة من لسان القط. هم بالتأكيد يضعون وجوههم الآن في الحائط يلعقونه حتى يسقط ليندفعوا من فوقه يدوسونه ويدوسون معه جنود ملك الزمان ثم يركضون كالشياطين نحو البلاد القريبة أولا يأكلون أهلها ويواصلون اندفاعهم حتى يصلوا إليه هنا!!

هب جالساً في فراشه وقد تسارعت دقات قلبه.

الخوف نسر كبير يمسك قلبه بين مخالبه وينحني ينهشه بمنقاره الصلب. هل تراهم كسروا الحائط الآن؟!

آه لو يعلم كم تبقى من الحائط الذي يفصلهم عنه. في بطء شديد تسحب نازلا من السرير. توقف لحظة يريد أن يتذكر أين يضع أباه المصحف. سيقرأ هو السورة التي تعيد الحائط إلى سمكه الأول كما بناه الملك وسيجد يأجوج ومأجوج الحائط الذي كاد أن يسقط وقد عاد كما كان.. سيصرخون من شدة الحزن وخيبة الأمل.. سيلطمون وجوههم ويدقون صدورهم ثم يبدأون من جديد.. ابتسم للفكرة وهدأت ضربات قلبه.. قال لنفسه: ربما يكون شيخ الجامع قد قرأ السورة أيضاً ليزداد الحائط سمكاً فلا يخرجون أبدا.. تسلق أدراج الدولاب ثم فتح ضلفته العلوية.. مد أصابعه يسحب المصحف في بطء. أحكم قبضته عليه منسلاً إلى الصالة. على ضوء المصباح الواهن راح يقلب الصفحات يبحث عن سورة الكهف التي حدثه أبوه عنها.. صفحات المصحف كثيرة وهم يلعقون الحائط. يقلب الصفحات. يلعقون الحائط. يقلب. يلعقون. أحس بنفسه قارباً صغيراً تائهاً وسط

أمواج محيط كبير لا يرى له شاطئاً. انقبض قلبه. لمعت في عينيه دمعتان وأحس في نفسه ميلا للبكاء. فتح باب الشارع وانطلق يجري.. في أذنه مع طنين الهواء دومت الكلمات «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض..».. «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض»..

في الحواري المظلمة اندفع يركض فوق التراب البارد وهواء الليل يندفع متخللا جلبابه الواسع.. من بعيد لمع ضوء مصباح شيخ الجامع في الطاقة البحرية. لابد أن الرجل يرقد الآن في سرواله الطويل وفانلته ذات الأكمام إلى جوار زوجته البدينة التي لا تكف عن الحركة داخل البيت طول النهار وصوتها الذي يشبه صفارة القطار لا يتوقف عن الصراخ حتى تسقط آخر اليوم مقطوعة النفس تستعد لجولة جديدة في اليوم الجديد..

على الباب الخشبي القديم ألقى جسده المرتعش يلهث بينما راح بقبضتيه يدق فوق الباب صارخاً في جوف الليل الساكت: الحائط.. سيسقط الحائط.. اصح يا سيدنا..

في إصرار.. كان الليل يبتلع دموعه وصوته الصغير فيما كانت القرية تتابع نومها الكسول في انتظار أن يأتي الصبح على عادته كل يوم..

الحب.. والحزن.. والحنين!

الليل في البلد بلا حس..

الليل هنا تضيئه عشرات..

مئات لمبات الكهرباء..

والصوت فيه لا ينقطع..

سيحكي لأمه وأخوته وكل أولاد البلد عندما يعود..

صرير عجلات الترام في الشارع فوق الشريط الحديدي اللامع.. موسيقى غريبة لم تألفها أذنه.. ونداءات الباعة المنغمة تتلوى وتصعد حتى تصل إليه في السرير.. يريد أن ينزل..

لكنه يخاف الهانم ابنة عمه..

يحس أنها تحبه..

لكنه يخاف منها عندما تغضب..

يخشى غضبها أيضا عمه الدكتور وشقيقتها الأكبر وكل أخوتها.. الكل يحسب لها ألف حساب ويبالغ في التودد إليها وهي تغدق عليه وحده من حبها..

وهو ليس كلباً..

أبداً لم يكن مثل كلبه سبع الليل الذي يسخر منه الأولاد.. تظل عيناه معلقتين بإشارة منه.. يختبره أمامهم.. يتعمد هذا ليشهدوا طاعته له عندما يطوح بالخشبة فينطلق سبع الليل خلفها نابحا ويعود بها في فمه يلقيها بين يديه ويقف يهتز أمامه بالفرحة.. يهز ذيله وينبح سعيداً ينتظر اختبارا آخر للحب.

هو يحب عمه.. ويعرف أنه رجل طيب.. ضخم الجسم وطيب.. ولا يعرف سببا لخوف أبيه منه.. وهو يخشى أباه رغم أنه ليس في ضخامة عمه.. لكنه لا يخاف عمه..

يضع رأسه في صدر عمه العريض ويشم أنفه رائحة المعطف الصوفي الخشن ويحس بالأمان فيروح يشكو ويشكو.. وعمه يربت فوق ظهره..

يرتفع صوت العم موبخاً ينهر الأب ويطيب خاطر الولد.. يطلب من عمه كل ما يريد..

يهز الأب رأسه موافقا والعم يعيد عليه كل ما يطلبه لكنه يلمح في طرف عين الأب نظرة وعيد تتحين لحظة سفر العم..

......

......

في ذلك اليوم كانت رغبة الهانم أن يسافر معهم إلى المدينة الكبيرة..

دق قلبه بالفرحة..

خبطت أمه على صدرها فزعاً

نهرها الأب..

سألت عينا العم في صمت عن رد الأب..

لا نريد أن نغضب الهانم!

هز الأب رأسه صاغراً..

انطلق هو يفتح الصندوق يخرج ملابسه الجديد بينما كان العم والهانم ابنته ينتظران في الخارج داخل السيارة الكبيرة..

احتضنته أمه وبكت. مسحت دموعها بكفها وتكلمت..

أوصته وأوصته.. فهز رأسه فاهما..

انحنت تقبله ففاحت من ثوبها رائحة الخبز والحلبة وسقط بينهما صمت طويل..

انفلت من حضنها ومرق من الباب مسرعاً.. فتح باب السيارة وألقى بنفسه في حضن الهانم الذي تفوح منه رائحة أزهار الجناين..

تحركت السيارة..

تطلع من زجاجها الخلفي يلقي على البلد نظرة وداع أخيرة قبل السفر..

لمح ثوب أمه الأسود وطاقية أبيه وعيالا كثيرة ظلت تركض خلف السيارة حتى خرجت من البلد واستدارت تستقبل الطريق الأسفلتي العريض الممتد أمامهم بلا نهاية..

على البعد ظلت تلوح لفترة أبراج الحمام وأشكال الشجر ثم اختفت ومعها الترعة التي يعرفها فسقط قلبه..

....

....

تكرر النداء.

صلصلة أجراس الترام يحس بها تستحثه.. نزل من السرير في حذر وتقدم يفتح باب الشرفة المطلة على الشارع..

من بين إحدى فرجات حديد الشرفة أدخل رأسه من وراء قماش الستارة الأبيض وجلس يطل مبهوراً بهذا العالم الذي يراه لأول مرة.

سيحكي لأمه عن الترام الذي يجلس فيه الناس كما يجلسون على المقهى في بلدهم.. عن الحافلات المكتظة بالأفندية والهوانم..

عن المحلات العمرانة بكل شيء في الدنيا..

كل شيء.

أحس باليد تسحبه..

فوق رأسه رأي الهانم..

قام معها صامتا..قالت إنه سيدخل الحمام الآن.. أحس أنه غريب يخنقه البكاء..

يريد أن يرى أخوته..

يجلس معهم الآن حول الطبلية وأمه تضع أمامهم طعام العشاء وأبوهم إلى جوارهم فوق الحصير يصلي..

بكى..

رفعت وجهه إليها في حنان وسألته عما يبكيه..

ارتفع بكاؤه..

كررت السؤال..

لا يريد التوقف..

صرخت فيه ليسكت

....

....

في السيارة العائدة انقطع بكاؤه..

عند أول منعطف يدخل إلى البلد فتح الباب قافزا من السيارة التي أصبحت تتهادى الآن ثم انطلق يركض فوق الطريق الترابي يسابق السيارة وهواء الفجر البارد يلسعه فيغمض عينيه يستشعر برودة الندى فوق وجهه بينما صوت عمه من خلفه يلاحقه مختلطا بطنين الهواء في أذنيه وأصوات الجنادب وذكور الضفادع تتجاوب عبر الحقول التي بدأت تصحو الآن متأهبة لاستقبال شمس نهار ما زال يحبو عند الأفق الشرقي.

دوائر الصمت.. والكلام!

وقع خطواتها يتردد في صمت الحواري النائمة في منتصف ليل مهزوم منطرح كالجسد الميت تحت أقدامها..

....

كان اليوم طويلا..

مرقت إلى جوار أقفاص الفاكهة والرجال أنصاف النائمين والعربات الخشبية المسنودة إلى الحوائط القديمة ودارت مع آخر الزقاق فاستقبلها شريط واهن من ضوء مصباح مشاكس..

في قلبها مرق الخوف كفأر مذعور.

عند أول السلم وقفت ورفعت بصرها خلال الظلام إلى أعلى.. استندت إلى السور الحديدي البارد وبدأت تصعد..

....

في الممر المعتم وقف قبالة الحائط يحصي راتبه الأخير للمرة الثانية.. طوى الورقات ودسها في جيبه واستدار يواصل الخروج عبر فتحة الباب الضيق يبتسم لتحية الناس ولا يرد وفي رأسه تطن أسئلة كثيرة يبحث لها عن أجوبة..

حول المائدة في العصر جلسوا..

قال وابتسامة كبيرة تملأ وجهه:

فضيت لكو.. خلاص!!

فزاطت البنات.

وابتلع هو غصة كانت تقف في حلقه..

ساهماً في الفراش جلس.. سيجارته بين أصابعه وراح يحسب تكاليف جهاز البنت الكبرى ومصروفات الجامعة للولد ويراجع على أصابعه كم سنة بقيت على تخرج ابنته الصغرى ويفكر في نوع العمل الذي وعدوه به للوسطى.. أطفأ السيجارة ومد يده يبحث عن مفتاح النور يطفئه واستمر في الظلام جالساً يفكر..

....

كانت تعلم أنه عندما يركب القطار سيرحل ولن يعود..

في فناء المحطة الواسع وقفت تنظر إليه وهو يمضي منفرداً نحو القطار.. ظلت عيناها معلقتين بجلبابه الأبيض تنتظر أن يلتفت إليها.. قبل أن يضع قدمه في فتحة الباب استدار نحوها.. لمحت في طرف عينه دمعة تلمع فانسكبت دموعها.. صرخت صفارة القطار فانخلع قلبها وغطت الضجة على صوت نشيجها.. رفعت كفيها تسد أذنيها وتصرخ «ما تسافرش يا بابا».. لكن القطار كان قد بدأ يتحرك.. لوحت له من بعيد ورأت من خلال عينيها المضببتين بالدموع ذراعه ممدودة إليها.. اندفعت تحاول اللحاق بالقطار لكنها عجزت عن اختراق عشرات الأجسام التي كانت تفصل بينها وبينه..

....

على الدرجة الرخامية العريضة جلست أمام اللافتة.. استندت بكفها تتحسس ملاسة الرخام المغسول فنفذت إلى عظامها برودة الحجر وارتعش جسمها. لا

تـدري كـم مـن الوقـت مـضى عليهـا في انتظـار وصـول الطبيب عندما أحست بكفه فوق كتفها..

نهضت صامتة تنظر في عينيه متسائلة..

أشاح بوجهـه بعيـداً عنهـا فـصرخ الفـزع داخلهـا وأدركت في لحظة كل شيء..

حين رأت أمها تجلس منحنيـة واضـعة رأسـها بـين كفيها كانت تعلـم أن كـل شيء قـد انتهـى.. جثـت عـلى ركبتيها أمها صامتة.. مـدت يـدها ترفـع وجههـا الحـزين إليها.. كانت عيناها مملـوءتين دموعـاً.. نهـضت تحتـضن الوجه العجوز في صدرها ثم مضت إلى غرفتـه تنظـر إليـه قبل أن يغيب بعيداً إلى حيث لن تراه..

....

صـعدت الـدرجات القليلـة إلى البـاب.. فتحتـه ودخلـت وأضـاءت النـور والتقطـت مـن فـوق الأرض بعض ورقات سقطت من عمل يوم أمس وأعادت ترتيب الرفوف وواجهات العرض وأحـصت النقـود في الخزينـة ثم جلست تنتظر..

في ذلك الصباح جاء..

رأته من خلال عتمة المدخل يقف تحت النور في الشارع بعيداً.. انتظرت أن يصعد لكنه غاب قليلاً ثم عاد..

دق قلبها بينما كان يصعد الدرجات إليها..

نهضت تستقبله..

وضع في كفها كفاً باردة..

قال إنه سيسافر ليبحث لنفسه عن فرصة مع الذين سافروا..

قال كلاماً كثيراً.

كانت صامتة.

وضع في كفها كفه البارد.. هز يدها قائلاً إنه لن يتوقف عن إرسال الخطابات.. أخرج صورته من الحافظة. ناولها لها قائلاً إنه لن ينساها وطلب منها ألا تنساه. قال إنه عندما يعود سوف..

كانت دوائر الكلام تدور حولها تنداح وتتسع وتطن في أذنيها لتتحول إلى همهمات بلا معنى..

استدار يهبط السلم

قبل أن يغيب في زحام الشارع صرخت خلفه «لأ.. لأ..»..

توقف لحظة.. استدار نحوها ينظر إليها للمرة الأخيرة مبتسماً.. لوح لها بيده فأنزلت ذراعها بينما كان هو يعبر الشارع في سرعة..

ظل الرجل..!

وجهها هذا الذي تراه أمامهـا الآن في المـرآة.. لـيس وجهها..

نفس الملامح نعم.. لكن شيئاً ما حدث..

أغمضت عينيها لحظات واسترجعت..

في سماء ليلها الحزين سطعت نجمة وحيـدة فأضـاء الليل.. وتبددت وحشته..

فتحـت عينيهـا ومالـت تطـل عليـه في الغرفـة المجاورة..

نحيفاً كان كما رأته أول مرة..

كان يختم صلاته..

سألت نفسها: أي رجـل هـو؟ أي قـوة تلـك التـي شدتها بعنف نحوه وهي التي عاشت ترفض الفكرة..

ومـن تلـك التـي تـرضى بالقيـد يوضـع في يـديها وقدميها لتصير جارية لرجل تحكمه العقد؟!

تذكرت كيف بدأت علاقتها معه..

كانت تريد صديقاً..

أرضها الخضراء التي أرهقها العطش والحر وسرح فيها الملح بدأت أشجارها تعرف اللون الأصفر..

رغم كل كلمات المجاملة الرقيقة التي تسمعها وتطن من حولها كانت تعرف أن زهورها لابد يوما ستذبل.. بل إنها تحس أنها قد بدأت رحلة ذبولها منذ زمن لا تستطيع أن تحدده لكنها تحس ذلك وتعرفه..

كانت تريده هو صديقا ينير أمامها الطريق ويقود خطواتها فيما بقى من العمر..

اقتربت من المرآة تتفرس في وجهها.

هل مازالت تلك الفتاة المرحة الجريئة التي تملأ الحياة من حلوها ضحكاً وصخباً؟!..

سألت نفسها..

وكانت تعرف الجواب..

فكرت لحظة..

لماذا أرادته صديقاً.. ولماذا أرادها هو زوجة؟.. ولماذا وافقت هي؟ ولما انهارت مقاومتها التي استمرت كل هذه السنين في لحظات أمامه؟..

قالت تواجه نفسها: نعم كنت أتمناه زوجاً أنا أيضاً..

وأضاءت وجهها ابتسامة ملأت نفسها شعوراً بالرضا..

تذكرت كل الرجال الذين رفضتهم أزواجاً لها.. وتعجبت لهذا القدر الغريب..

للآن لا تعرف كيف حدث كل هذا.. بل إنها تتصور أحياناً أنها تعيش حلماً لا تريد أن تصحو منه..

سمعت صوته يناديها فأسرعت إليه..

تحب صوته يتردد في بيتها..

مد لها ذراعه فضمتها إلى صدرها.. رفعت كفه إلى فمها وقبلتها وفي عينيها دموع..

مد أصابعه يمسح الدموع عن وجهها فمالت تريح رأسها فوق صدره..

الآن تدرك أنها كانت تحتاج هذا الصدق الذي ظلت تبحث عنه طويلاً حتى يئست من العثور عليه فقررت أن تكمل مشوارها وحيدة.. لكن بئر الحنان التي تفجرت تحت قدميها اندفع ماؤها عفياً يروي أرضها التي كادت تموت عطشاً فتغير من حولها شكل الأشياء وبدت وكأنها ترى الدنيا بعيون جديدة..

نفس الأشياء.. تراها الآن مختلفة.. مشوارها إلى عملها.. شكل المبنى.. المصعد.. الحجرات.. حتى الناس كلها تغير شكلها في عينيها منذ دخلت عالمه.. منذ أدخلته قلبها..

قالت لنفسها وهي تسمع دقات قلبه: حرارة صدقه هي التي كنت أفتش عنها وهاهي الآن معي.. وأغمضت عينيها..

أحست أنامله تتخلل شعرها وسرى صوته في كيانها كله.. يهدهدها صوته وتحس نفسها طفلة بين ذراعيه.. رفعت وجهها إليه وابتسمت..

قالت فجأة متظاهرة بالجد: اسمع.. قد قطعت مشواراً طويلاً تحت حر هذه الحياة وحيدة لكنني قوية.. أخفي مخالب عنفي دائماً متحفزة للانقضاض في الوقت المناسب وليس لدي وقت أضيعه الآن.. هل تحبني؟

قالتها.. وغمرها شعور قوي أن العمر يعود بها فتاة تتفتح للحياة.. زهرة تعانق النور وتستقبل ندى الصبح الطالع تحسه فوق أوراقها لأول مرة..

همست «معك أحس أنني أولد من جديد.. وأدخل عالماً لم أكن أعرفه.. عرفته لحظة عرفتك..».

ضمها إلى صدره في قوة..

غمغمت «هذه السنين التي عشتها.. نسيتها الآن.. ونسيت زحام الأصدقاء وصخب الأضواء والسهر.. وضجة العمل ودوائر العلاقات المتشابكة وهموم السفر ومطاردة الحياة.. وذلك اللهاث الذي لا يهدأ كلما خضت صراعاً انهزمت فيه أو انتصرت.. أحس الآن كل شيء يهدأ من حولي.. والحياة تصفو فأستمع إلى صوتها الحقيقي يناديني. ناعماً.. منغوماً.. وأراها تفتح لي ذراعيها فأستدير

إليها أعانقها كالمسحورة. لكنها.. تعرف.. ليست كالحياة التي كنت أعرفها.. هذا وجهها الهادئ الوديع الذي...».

سألته: أتسمعني؟

هز رأسه..

قالت:«كنت أعرف أن حياتي المزدحمة هذه خاوية خواء الموت.. تصفر فيها الوحشة ويسكنها الظلام وتعشش فيها المخاوف والأحزان رغم كل ما كانت تعج به من أضواء وأصوات وبشر.. كنت أعلم أنني أبحث عنك.. ولا أعرف كيف أسميك.. ولا أعرف أين ولا كيف ولا متى أجدك..»..

وتنهدت..

ربت فوق رأسها.. ومسح على شعرها..

مدت كفها نحوه..

بأصابعها عانقت أصابعه.. تأملت عينيه الهادئتين..

فوق كتفه عاودت نومها..

سألته: أتعرف ماذا يفعل الطفل عندما يخاف؟

قالت قبل أن يجيب: يصرخ.. نعم يصرخ.. ليضيء الظلام أمامه بصوته.. صوته هنا هو أنيسه.. هكذا كنت أنا.. أملأ الحياة من حولي صخباً وصراخاً وضحكاً أشبه بالبكاء بينما يعربد الفراغ في قلبي.. وأظل هكذا حتى لا أسير وحدي في الظلام والوحشة وأنت لست إلى جواري..

ترددت تسأله لماذا اختارها زوجة؟

حبست أنفاسها تنتظر الإجابة.

قال بصوته الممتلئ حباً: لأنه قرأ في عينيها ما لم يستطع رجل غيره أن يقرأه..

صوته يطوف بها كهبات النسيم في ليلة صيف أرهقها الحر..

أضاف أنه سمع نداءها.. من مكان بعيد داخل أعماق روحه كان قد نسيه سمعها تناديه فاكتشف أنه أيضاً كان يناديها.. وأنه الآن يرى أن مشوار حياته مهما طال كان لابد أن ينتهي إليها تماما كما قادها خط حياتها إليه..

أغمضت عينيها وسرحت تتأمل ذلك الشريط الطويل من حياتها يمر أمامها وأحست أنها تستريح الآن تحت ظل شجرة وارفة بعد أن طال بها المشوار تحت شمس حياة لا ترحم وحرّ يمعن في القسوة والقهر.. ورأت أنها كانت تسير وسط صحراء لا مكان فيها لأي ظل حتى رأت على البعد ظل ذلك الرجل الذي أحبته..

هدأت أنفاسها.. وأحست أنها تستطيع الآن أن تنام مطمئنة..

تلك الأشياء!

لما حاصرني الليل بكيت..

كنت أعلم أن قطار الفجر ينتظر الآن فوق القضبان الحديدية لامعة السواد مرتكزاً بثقله عليها متحفزاً للانطلاق في أي لحظة..

....

قالت: في الثامنة والنصف تماما يعقدون القران.. وضحكت.. فضحكت..

....

لاح البحر أمامنا من بعيد ونحن نهبط الطريق معا متجاوزين شريط القطار وبعض الدكاكين التي أقفرت من الزبائن ونخوض مساحة الأرض المعشبة أمام المزلقان إلى الشارع الرئيسي..

هبت نسمة ملحية باردة فانتفض جسدي كله.. ضغطت أصابعها في كفي وابتسمت.. ولم أتكلم..

....

كنت أسير وحدي على الكورنيش الطويل حين حطت كفه فوق كتفي..

استدرت إليه في بطء. مد يده يتحسس شعيرات ذقني الخشنة متسائلاً: ألا تذكرني؟..

وشبح ابتسامة مترددة يلوح على وجهه بينما بدت عيناه مبللتين بوضوح..

رفعت كفي في مواجهة قرص الشمس وهززت رأسي..

قال ولا يزال مصرا على مواصلة الابتسام:

- تغيرت قليلاً!!

قلت محاولاً أن أرد على ابتسامته:

- كثيراً..

ورحت أقلب في ذاكرتي باحثاً عن أي أثر لصورته فلا أجد.

هز رأسه في أسف ومضى..

استدرت أنظر خلفه..

كان يعرج في مشيته قليلاً معتمدا على عصاه وبدت لي عجيزته عريضة بعض الشيء..

فكرت في اللحاق به.. هممت بالنداء.. لكن معدتي الخاوية كانت تؤلمني.

استندت إلى الحجر لحظة.. ثم مضيت مواصلا سيرى ومازلت أقلب في ذاكرتي عن أي أثر لصورته محاولا أن أتذكره..

....

حين دق جرس التليفون أسرعت أخطف السماعة.

جاءني صوتها الحريري يسأل:

- هل تذكر موعدنا؟

دقت أجراس كثيرة داخلي.. لم أسمع صوتي وأنا أردد: نعم. نعم..

لم أسمع ماذا قالت بعد ذلك.. ووضعت السماعة..

....

عندما فتحت عيني كان كل شيء من حولي شديد البياض..

وكانت هي تقف إلى جوار فراشي دامعة العينين..

حاولت أن أنهض.. لكنني لم أستطع..

....

لفحتني ضوضاء الشارع..

كان كل شيء صاخباً مندفعاً في كل اتجاه..

حاولت أن أتذكر كل شيء.. أي شيء.. لكنني فشلت.. استندت بظهري إلى الحائط المترب ورحت أفتش في جيوبي عن شيء لا أعرف ما هو بالتحديد لكنني لم أجده فمسحت عرقي واعتدلت.

....

....

قالوا: ستنظر في اتجاه هذه اللمبات الحمراء وتتكلم..

تذكر.. عندما نعطيك الإشارة تتكلم..

اقترب مني أحدهم وقال في لطف:

- حاول أن تبتسم وأنت تتكلم.. هه؟!

هززت رأسي وفتحت فمي محاولا الكلام..

خرج صوتي غريباً..

ركزت عيني على اللمبات..

أضيئت أنوار كثيرة فأحسست أني وحيد.. وساورتني رغبة ملحة في البكاء..

....

هبط الأسانسير إلى الدور الأرضي فخرجت إلى الشارع..

كان الجو بارداً بعض الشيء في حين راحت أشعة الشمس في ذلك الصباح تظهر وتختفي خلف ارتال السحاب المندفع فوق أسطح العمارات..

دسست يدي في جيوبي وركضت أعبر الشارع محاولاً أن أدفيء نفسي..

....

استدار الجندي المكلف بالقيادة نحونا قائلاً:

الطريق مازال طويلاً.. نصل إلى هناك قرب الفجر..

أرحت بندقيتي إلى جواري واسترخيت في مقعدي فارداً ساقيّ على طولهما وأغمضت عيني بينما كانت ثرثرة الجنود حولي تطن في أذني لا تزال..

للحظة..

رأيت ذلك الشيء المتوهج يبتلعنا ثم فجأة انطفأ كل شيء.

....

مال قرص الشمس الأحمر الكبير فسرت في المكان نسمة باردة وتوهج في عينيها ذلك الشيء..

تناولت كفها وأنا أهم بالوقوف..

سحبت كفها بسرعة ومضت مبتعدة..

كان المكان من حولنا خالياً.. فوقفت وحدي أرقب مياه البحر المرتعشة والأشجار البعيدة وظلال المباني

المنتصبة في سكون.. ثم رحت ببطء أصعد الدرجات القليلة إلى الشارع الذي بدأت تعود إليه الحياة..

....

مزقت صفارة القطار سكون الليل فانتفضت.. وراحت عجلاته تصر فوق القضبان تحمله بعيداً فيوغل في الحزن قلبي..

مددت ذراعي أحاول فتح النافذة الموصدة دون جدوى.

رفعت قبضتي ورحت أهوى بها فوق الزجاج أحطمه..

الرغبة في الضحك!

لم يكن القطار قد غادر المحطة بعد..

كان ما يزال إلى جوار الرصيف.. كيانا هائلاً من حديد وجبروت.. يزفر.. يهدر.. ويهتز..

أطل الفتى من النافذة.. نحيلاً كان.. على وجهه آثار مرض جلدي قديم.. عاري الرأس.. حليق الشعر.. في عينيه طيبة.. وحيرة..

على الرصيف كانت..

وسط الزحام عجوز تبكي..

تلطم خديها وتبكي..

تدق صدرها وتبكي..

إلى جوارها وقف الرجل مفرود القامة.. وجهه لوحته الشمس.. تقلصت ملامحه بينما قبضت كفه على ذراع المرأة تهزها في عنف.. في حين تعلقت عيناها بنافذة القطار فلم تشعر بما يدور حولها..

على البعد.. خلفها.. كانت في الزحام صبية تقف.. تتوارى.. تخاف أن تلمحها عين.. جميلة كانت وريانة.. كيان صغير بريئ يرقب المشهد بقلب ينتفض كحمامة مذبوحة.. رفعت الصبية طرف طرحتها تمسح دموعها في صمت حزين.. مستسلم.. صابر..

من النافذة إلى جوار الفتى كانت الرءوس محشورة تطل.. يتزاحمون.. يتدافعون وكلهم عيون تطل وأياد تلوح.. يثرثرون.. ينادون.. يضحكون.. والفتى ساكت ينظر.. يجاهد ليبقى في النافذة ويستميت حتى لا يتزحزح عنها.. نظراته موزعة بين المرأة والرجل والصبية.. لا يريد أن يغيبوا عن نظره..

زفر القطار زفرة عالية مبحوحة مهدودة الحيل واهتز..

ارتفعت الذراع ثم دارت نصف دورة إلى الإمام واندفعت باطشة لتهوى مستسلمة للخلف تستريح فتدور العجلات دورة كاملة وتسكت.. زعقت صفارة القطار محذرة «سأمشي».. أحست بها المرأة تنوح معها على فراق

الولــد.. دارت العجــلات دورة.. ودورتــين.. وثلاثــا وارتفعت دقاتها على القضيب الحديـدي اللامـع في رتابـة تؤكـد أنهـا جـادة في الرحيــل.. «أتــرككم.. أتــرككم.. أترككم»..

تذكر الفتى دقات أمه على صدرها بينما هم يحملـون شقيقه الأكبر إلى الجبانـة غـربي البلـد تحت صـهد النهـار وسحابات الغبار تثور تحت أقدامهم.. كـان يـسير خلفهـا محكما قبضة كفه الصغيرة حـول ذيـل جلبابهـا الأسـود في حين راحت هـي تـؤدي طقـوس حزنهـا الغريبـة.. ترفـع كفيها نحو السماء مفتوحتي الأصابع ثم تهـوى بهـما فـوق رأسها فتتراجع طرحتها وينكشف شعرها.. مـرات قليلـة هي التي رأى فيها شعرها.. ما يـزال يظـن أن شـعر المـرأة عورة يجب ألا يراها مخلوق.. تكور أمه قبضتيها وتدق بها فوق صدرها.. تلطم فخذيها ووجهها ويلهث هو خلفهـا يكاد ينكفئ على وجهه..

على وجهـه تـدحرجت دمعتـان خجلتـان وانزلقتـا فـوق خديـه.. غامـت عينـاه فـاهتزت صـورهم أمامـه.. تداخلت المرئيات وسـد الطنـين أذنيـه.. للحظـة راودتـه

فكرة أن يقفز إليهم من النافذة.. هز رأسه يطرد الفكرة والخوف من العقاب يهدده.. تذكر حديث العمدة لأبيه عنه.. سمع في كلامهم شيئاً عن مصر والجيش.. ظل حديث ليالي البلد كلها فترة من الزمن وموضوعا لحكايات المصاطب تحت ضوء الفوانيس أو نور القمر..

فوق إحدى المصاطب قد يميل رأس نحو آخر.. يرشف من كوب الشاي في يده رشفة متلذذة ليقول: آي والنبي زي ما باقول لك.. جاله الإخطار م البندر.. آني ما شفتوشي لأ.. لكن الغفير قال إنه متخلف كمان وضروري يسلم نفسه..

قد يتدخل ثالث متصعبا: يا سلام يا ولاد.. حقيقي الزمن ببجري.. بقى الواد ابن امبارح ده رايح الجيش!!

تحت جميزة أو توتة خارج البلد قد تلتف مجموعة من الشباب حول شيخ يحكي لهم: إيه رأيكم آني لفيت بر الشام ده كله بلد بلد مع السلطة..

يدور بعينيه فيهم يقرأ وقع كلامه على أحاسيسهم الطفلة.. يؤكد لهم: أمال.. كنا رجاله يا ولاد (ينفخ

صدره) بس كنا غلابة يا ولداه (يطرق في الأرض) لا قدامنا ولا ورانا.. وانت (يضع كفه العريضة فوق كتفه) لازم تكون راجل في مصر.. فاهم؟.. فيهز رأسه موافقاً..

رفع كفه الخشنة ومسح دموعه من تحت عينيه..

....

«ابني!!».

صرخت المرأة..

كان القطار يجر ذيله من جوار الرصيف دافعاً رأسه للأمام خارج المحطة متسحباً ببطء.. متأهباً للانطلاق في كل لحظة..

أسرع القطار..

رفع الشيخ يده مودعا.

أسرع..

تقدمت الصبية خطوة.. خطوتين.. توقفت.. رفعت طرحتها إلى عينيها.. أنزلتها بسرعة.. لا تريد أن تفوتها لحظه من وجهه.. ألقت عليه نظرة بطيئة متأملة متأنية.. حصرته فيها.. ضغطته في نني عينيها.. أنزلته في

قلبها وأغلقته عليه.. استدارت عائدة. انقبض قلبه.. مد ذراعه خارج النافذة يشير لها لتنتظر.. أعطته ظهرها ومضت.. تمنى في قلبه لو التفتت مرة واحدة فقط..أحس بالهم يرزح فوق قلبه.. وحط عليه يأس لم يجربه قبل اللحظة.. مالت الرءوس كلها دفعة واحدة وتزاحمت تطل، تريد أن تلقي نظرتها الأخيرة على كل شيء قبل أن يبتلعهم المجهول.. لم يبق من وجه الفتى سوى جزء صغير شاحب وسط الوجوه لكنه يراهم.. عند نهاية الرصيف استدارت الصبية.. خفق قلبه.. ملأ عينيه منها على اتساعهما يحتويها في عينيه.. فتح فمه.. أراد أن يقول شيئاً.. همسه لنفسه.. لم يسمعه أحد.. بحثت هي عن وجهه بين الوجوه.. لم تستطع العثور عليه.. وجوه كثيرة صفراء وسمراء وبيضاء.. حواجب وأنوف وآذان وعيون.. عيون وأذرع تلوح وأكف تمسك بحديد النوافذ.. دققت نظرها في الوجوه تفتش عن الوجه الذي تعرفه بينهم.. لم تجده.. بحثت عن عينيه.. عسليتان طيبتان..تعرفهما.. فيهما لها كلام كثير.. لم تجدهما..

كان القطار قد أدار ظهره للبلـدة ومـضى منطلقـاً.. جباراً.. لا يعـرف الرحمـة.. لا يفهـم ولا يحـس.. يلملـم ضجته خلفه ويبتعـد.. يـسحب قلبهـا معـه.. ينزعـه مـن صـدرها.. سـيل المـرُّ داخلهـا.. يـسقط قطـرة.. قطـرة في جوفها.. تحس طعمه على لسانها وفي عينيهـا وداخـل كـل مسام روحها.. تمد ذراعها تـستند إلى الحـائط بجوارهـا.. الدموع في عينيها لا تريد أن تسقط.. عند المنحنـى البعيـد يتلوى القطار كالثعبان الأسود ثم ينطلق صارخاً.. تـسمع صرخته فيرتجف كيانها كله.. يغـوص في خـضرة الحقـول وزرقة السماء كتلة بـاردة تهتكـك المجهـول ولا تتوقـف.. أشباح بعض الأيادي مازالت عـلى البعـد تلـوح ورءوس تطل.. تبتعد المحطـة.. يبتعـد القطـار.. تبتعـد.. يبتعـد.. يتحول كتلة سـوداء عنـد الأفـق تفقـد معناهـا وتـترك في القلوب المرارة..

شخصت المرأة بعينيها إلى الأفق البعيـد.. في جـوف القطار يجلـس ولـدها أو يقـف.. يطـوي القطـار حديـده عليه.. يخطفه منها ويجري.. الخائن يسرع بـه إلى حيـث لا تعلم.. لا تعلم أيـضاً كيـف سينام قبـل أن تطـل عليـه..

تنحني عليه تغطيه.. تمسح بيدها فوق جبهته وشعره.. يمد يده يخطف يدها يقبلها وتسرح عيناه في سقف الدار.. لا تعلم ماذا سيأكل.. من بيده سيعد له طعامه.. من سينادي عليه كل صباح ليصحو.. يفتح عينيه الجميلتين.. يبتسم.. كالطفل يتثاءب.. تنهره متصنعة الشدة لينهض.. يقفز يقبلها ويطلب منها الدعاء.. كالماء يتسرب كل هذا من بين أصابعها.. تكوم حزنها فوق قلبها وتستدير عائدة.. إلى جوارها الرجل لا يفتح فمه.. هؤلاء الرجال قلوبهم كالحجارة قوية.. يحتملون ما لا تحتمل النساء.. هكذا قدرها ولا حيلة لها.. عيون الرجل تحدق في لا شيء.. جامدة.. تعلم أنه يحبه ولا يقوى على فراقه في شيخوخته لكنه عنيد لا يستسلم بسهولة..

وحدها وقفت فوق الرصيف.. مضى الكل من حولها وتفرقوا وانتهى كل شيء كأنه لم يكن أبداً.. هل كان كابوساً وانزاح؟! مطلقاً فالكابوس فوق قلبها جاثم ما يزال.. وهو.. هو سافر.. أخذوه منها.. لكنها تعلم أنه سيعود.. شيء داخلها يقول لها إنه سيعود.. وسيحكي

لها.. وستسمع لـه.. صـوته الـصافي يترقـرق في أذنيهـا.. أنفاسه تقبل وجههـا كنـسيم الـصبح المغـسول بالنـدى.. تجمعت الدموع في عينيها.. غلبتها دموعها.. رفعت كفهـا إلى فمها.. وأسرعت تغـادر المحطـة.. هبطـت الـدرجات الثلاث.. وعند نهاية السور انطلقت تعـدو فـوق الطريـق الترابي الداخل إلى البلد..

أطرقت بوجهها تنظر إلى صفحة المـاء.. قالـت دون أن ترفع وجهها إنها لم تكن تريد أكثر من أن تقول له كلمة واحدة قبل أن يـسافر.. أضـافت في حـزن حقيقـي أنهـا لم تـستطع.. سـكتت.. مـدت كفهـا تـرش المـاء.. شردت نظراتها تفكر فيه.. كفه الكبيرة تحتـضن كفهـا الـصغيرة.. تستكين في يده لحظة ثم تسحبها بسرعة وتتلفت حولهـا في خوف..

يسألها في لهفة: خايفة؟!

قلبه يدق بالحب.

قلبها يدق بالحب.. والخوف.

يهمس لها: تتجوزيني يا بت؟!

تزقزق ملايين العصافير في أذنيها.. تعانق نظراتها الحقول حولها.. يتحول المشهد حلما تتفتح فيه كل نوارات الحقول.. يهز الشجر أوراقه يشاركها فرحتها.. أولادها يجرون أمامها.. دجاجاتها تسرح أمام باب الدار وخبزها في الفرن يبعث رائحته تملأ دارها بالخير تنتظر الرجل عندما يعود..

مدت ساقيها في الماء.. عمودان من المرمر يحتضنهما الماء ويدور حولهما في نعومة يتحسسهما برفق..

رفعت رأسها.. نظرت في عيون البنات حولها وقالت منتشية إنها في الحقيقة كانت تريد أن تقول له كلاما كثيراً.. كثيراً.. لكنها لا.. لا تقوى أن ترفع عينيها في عينيه..

زفرت في حرقة فتنهدت البنات وارتفعت ضحكاتهن.. مالت تملأ حفنتيها من الماء ودارت تطسهن حتى يتوقفن عن الضحك.. مضت متعجلة تمسح كفيها في ذيل ثوبها.. وانطلقت تطاردهن..

....

....

... وآه من الغربة.

سكين تغوص في أحشائه وتتلوى داخلها.

وحش جبار لا يرحم يتربص بالإنسان الوحيد وينقض عليه وينهش قلبه.. طعم الدموع في فمه لكن البكاء لا يليق بالرجال.. طافت برأسه صورتها تقطع حواري البلد.. تسير بمفردها على الجسر.. تعدو مع البنات تدوس بأقدامها الصغيرة زهرات البرسيم.. يقطع عليها الطريق.. تجفل كحيوان خائف.. تنتفض بين يديه تبحث عن مهرب وتنفلت هاربة.. تذكر أمه بجلبابها الداخلي الملون وقد شمرت أكمامها وتربعت أمام الفرن والعيش يخرج على يديها أقمارا وردية الخدود تفوح منها رائحة البلد.. رائحة يشمها في كل بيوت الفلاحين وتهدأ لها نفسه.. في مكانه.. تذكر أن الغد موعد الرية الثانية للأرض. يوم الجمعة كان اتفاقه لأخذ البقرة الجديدة للعشار في السوق.. قال لنفسه.. لابد أن أمه الآن تضع

الشاي أمام أبيه والبلد كلها نفس واحد بعد أن طرحت عن نفسها عماء الليل واستيقظت بيوتها وحيواناتها وطيورها..

أغمض عينيه كي يحلم.. هي أيضا لعلها الآن أمام باب الدار ترسل دجاجاتها تخرج للخلاء.

هب كالملسوع على اسمه في النداء.

صرخ كما يصرخون «افندى ى ى م!».

لكنها خرجت مرعوشة.. خائفة.. باغتها النداء فسمعها مبحوحة تصدر من حلقه الجاف..

نعم.. الاسم اسمه.. وهذا اسم أبيه يعرفه.. واسم جده كذلك.. يرحمه الله.. كان رجلا مازالت البلدة كلها تذكره للآن وتترحم عليه.. يقولون إن فيه منه شبها.. لكن المؤكد أنه لم يجلس مثله القرفصاء في طابور طويل كما يفعل الآن يتوقع في كل لحظة جديداً لا يألفه ولا يعرفه ويحتار كيف يتعامل معه.. الدنيا هنا غريبة عنه.. ينفر منها ولا تريد البوح بأسرارها طواعية..

سمع اسمه كما سمع أسماء الآخرين.. أحس بالحب نحوهم.. كل هذه الأسماء من كل مكان في مصر.. أرض الله.. وناس.. وأمم من كل مكان.. كلهم مثله وفيهم أيضا من يخافون مثله لكن ينكرون خوفهم.. يبلعونه كطعام خبيث لا يجرءون على تقيئه..

اسمه هنا يسمعه غريباً.. وقعه على أذنيه لا يعرفه كأنه ليس اسمه.. هنا هو شيء منفصل تماماً عنه..

قام يجري إلى أول الطابور.

- مدِ

مدَّ

- اجر

جرى

أمام صف الضابط وقف.. أنفاسه تهرب منه.

- اسمك

تسارعت دقات قلبه.. ريقه جاف.. ردد الاسم دون إحساس وأحس كأنه يخون نفسه واسم أبيه وجده.. لم يعد يحس نحوه نفس المودة والألفة التي كان يحسها

لاسمه دون أن يدري.. شعور جديد لم يجربه قبل اللحظة..

- اللي بعده.

انضم للتشكيل.. اصطفوا جميعا في طوابير طويلة..
صرخ فيهم صوت يأمرهم:

- صفا

يجمع فيها كل قوته

- انتباه

حادة كالمدية

- لليمين دررر

لليمين داروا

- للشمال دررر

للشمال داروا

- قف

تخشبوا

لا يدري من أين خرج الصوت.. تسلل من مكان في الطابور كلسان الأفعى يتحسس الهواء.

«ما ترسى بنا على بر يا عم.. يمين دور ولا شمال دور»

كالنبات الشيطاني في الأرض البور نبتت الضحكة.. فلقت قشرة الأرض وسرحت زهورها تفرش كل مكان.

«اخرس»!

كالقدم الغليظة فوقها تهرسها مرة واحدة.. ماتت الضحكة على شفاههم.. وقف بينهم مشلول الضحكة لا يعرف لماذا ضحك ثم لماذا سكت.

- أنت يا عيل.. انت.. بتضحك ليه؟

- ....

- أيوة أنت بتضحك ليه؟

- آني مش عيل

- انت مرة!

ثم على صدغه هوت الكف الغليظة.

في عيون الرجلين راحت غيوم الغضب تتجمع وتتكاثر..

غضبه هو ممزوج بخوف غريب لم يألفه.. بدأ يتسلل داخلاً إلى روحه.. ينتشر فيها كالسم.. يسري بطيئاً حتى يستولي عليه فيصيبه بالشلل والموت.. خوفه قبل هذه اللحظة كان خوفاً عبيطاً.. الآن يدرك هذا.. خوف طفولي من نوع مختلف لو استطاع لسخر من نفسه الآن وقهقه ضاحكاً.. كان يخاف الليل وأولاد الليل.. يخاف نظرة أبيه الصارمة.. وأمه حيث تكشف رأسها وتفتح صدرها تدق عليه وجهها للقبلة تهدد بالدعاء عليه فيرتمي تحت قدميها ضارعاً ألا تفعل.. خوفه هذه المرة مختلف.. يحسه خبيثاً.. لا يعرف سببه ولا يستطيع تحديد مصدره.. لا يستطيع أن يمسكه بيده..

هوت الكف الغليظة على صدغه فأحس ارتطام اللحم باللحم.. وعظام الأصابع تنفذ إلى عظام وجهه..

اندفع الدم حاراً من أنفه وسال على شعيرات شاربه النابتة ثم تلوى خطا قانيا لزجا هابطا من شفته العليا إلى فمه فأحس على لسانه طعمه الملحي الصدئ..

تجمعت دمعتان كبيرتـان في عينيـه.. أحـس ضـعفه ورأى نفسه عاريا أمامهم.. سقط الطفل مـن عينيـه أمامـهِ ثم قام من سقطته وركض هارباً..

تـدحرجت الـدمعتان فـوق خديـه فمـد أصـابعه المرتعشة تمسحهما.. في كفه اختلطت دموعه بدمـه النـازف من أنفه..

- انتباه..

خيم على الطابور كله وجوم صامت مقبض.

معتادان.. مارش..

....

....

الناس والأشـياء في غبـشة الفجـر أشـباح مهـزوزة تتحرك بعيداً عنه لا يستطيع التمييز بينها..

انطلقت العربة بهم تخـترق الـشوارع الخاليـة حتـى خرجـت إلى الخـلاء وراحـت تقطـع طريقـا طـويلا لا يعرفها.. البيوت على البعد عـامرة تـشغى بالحيـاة وتـتردد داخلها أنفاس ليل قلق وصباح ممتلئ بالتفاؤل..

أسند ظهره إلى حديد العربة وقرفص ساقيه أمام صدره مستسلماً لاهتزازات العربة.. فجأة اقتحمت الضحكة سمعه.. انطلقت من مكان لا يعرفه وأصابته.. مال بجسمه فوق حديد العربة المهتزة يبحث عن مصدرها..

كان قرص الشمس قد بدأ يطل برأسه كرة بلون الدم عفية استردت قوتها بعد رحلة طويلة مجهدة..

ملأ رئتيه من نسيم الصبح الرطب الطري وابتسم.. ارتكن إلى السور الحديدي يريح ظهره بينما كان النور الزاحف في إصرار يمتد شيئاً فشيئاً يتسلق الأشجار ويفرش الأرض ويصعد حوائط المباني يكنس أمامه الظلمة الخائرة ويفيض فيغمر بدفئه كل شيء..

فتح عينيه على اتساعهما يرقب المشهد من حوله بفرحة.. راحت فرحته تنمو داخله.. يحس بها تستيقظ وتتمطى.. هب واقفا على قدميه وقفز يتعلق بالقضيب الحديدي في سقف العربة المكشوفة يعب بعينيه كل ما يراه مسلما نفسه لنوبة من الضحك لم يستطع منعها بينما راحت العربة تهدر في الخلاء المفتوح دون توقف..

عينان.. واسعتان!

من فوق رآه..

مد الولد الكبير يده وخطف «الكاسكيت» الجديدة وانطلق هاربا..

من فوق أراد أن يقفز.. الارتفاع يخيفه.. كره الأرجوحة الدوارة في تلك اللحظة واستعجل نزولها..

عيناه لا تفارقان الولد الكبير الهارب وسط زحام ألوان الملابس والعربات وزياط البنات والباعة وكل صخب العيد..

هبطت الأرجوحة فانطلق يركض في الاتجاه الذي حدده.. تغير شكل المكان.. زحام الأجسام من حوله يعوقه.. اختلطت الصور وتداخلت فتاه وجه الولد الكبير من ذاكرته..

دفع قرشا ثانيا وركب الأرجوحة واستعجل صعودها.. أدار عينيه يمسح المشهد.. عثر على الولد

الكبير عند ناصية البيت الأصفر العالي ذي الشرفات الواسعة والنساء المطلات من فوق ..صدورهن العارية الثقيلة تكاد تسقط من فوق السور الحديدي ذي الزخارف الواسعة..

أغمض عينيه حتى لا تضيع الصورة من ذاكرته.. استعجل هبوط الأرجوحة.. قفز منها وانطلق صوب البيت الأصفر والولد الكبير.. اندفع نحوه يدفعه في صدره ويخطف «الكاسكيت» من يده..

على ظهره سقط الولد الكبير.. اتسعت دائرة من حولها.. زحف الولد على مقعدته في التراب متراجعاً.. التفت يلتقط حجرا ثم وثب.. مال للخلف مصوبا الحجر نحوه.. انحنى يخفي عينيه بكفيه.. سمع ارتطام الحجر من خلفه.. استدار.. كان بائع الترمس الذي أتى مهرولا يحمل القلة المكسورة في يده متوعدا يطارد الولد الكبير الذي اندفع يتخفى مندسا وسط الزحام..

استدار عائدا وقد استماتت أصابعه على «الكاسكيت»..

خلف الأرجوحة وجده برأسه الحليقة ما يزال يبكي.. وضع «الكاسكيت» فوق رأسه العاري ثم رفع كفه وأهوى بها فوق وجهه..

سكت بكاء الصغير ومضى خلفه دون كلمة..

استدار يرفع إصبعه في وجهه مهددا «لن تحكي كلمة مما حدث!»..

هز الصغير رأسه موافقاً..

....

....

وحده يعرف الطريق وكل السكك..

سخونة تراب الحارات الراقدة تتمطى تحت وقدة شمي ذلك النهار تتسلل إلى قدميه.

اخترم غيط صفية ودخل من فتحة حديد سور سوق الجمال ومضى وسط صفوفها المجترة مبتعداً عن رءوسها الكبيرة وعيونها نصف النائمة محاذرا أن يلوث الروث حذاءه الجديد..

من خلفه مضى الصغير مطأطئا وقد وضع كفه فوق «الكاسكيت» يسير صامتا..

من فتحة السور خرجا..

أمسك كف الصغير يعبر بـه شريـط القطـار محاذيـا ضفة الترعة الممتلئة بالميـاه اللامعـة وأرض المولـد وعزبـة الصعايدة ببيوتها القصيرة.. انحنى مع زاوية بقالة عاشـور وولده المغلقة والمعمل والفرن الكبير حتـى دكـان بـشاي العـلاف.. عنـدها يعـرف أن البيـت قـد اقـترب ويحـس الونس..

أطلق كف الصغير ومضى وئيداً يقترب مـن البيـت ونافذته نصف المفتوحة التي يعلم أن أمه لابد تجلس تحتها الآن تنتظر عودة أبيه..

قال لأمه مشيراً بإصـبعه نحوهـا إنـه لا يحـب هـذا العيد ولا يريده لأنه ملئ باللصوص..

نظرت الأم إلى عيني الصغير المحمرتين ثـم التفتـت نحوه.. مدت ذراعيها تضمه.. لانت نظرته وأنزل ذراعـه مستجيبا لحضنها..

وضع رأسه فوق صدرها وراح يبكـي دون صـوت
بينما كانت عيناه تراقبان الصغير الذي وقف واسع العينين
يتابع صامتا ما يحدث!!

مشاهد من الخوف القديم!

يتجول الليل في الخارج فأنكمش في حضن أمي وأدخل تحت ذراعها الدافئ أتنفس رائحة عرقها ولا أستطيع النوم..

أفتح عيني فلا أرى في الظلام سوى شماعة الملابس المعدنية منتصبة في ركن الغرفة.. على رأسها طربوش أبي وقد تعلق فوق أحد أذرعها معطفه.. وألاحظ أن ظله على الحائط أطول من قامته فأغمض عيني خوفا.. لكنني أعود أفتحهما ببطء وأقاوم في داخلي رغبة جارفة في البكاء..

أنادي أمي هامسا.. وأزحف صاعدا نحو أذنها كي تسمعني.. لكنها تدفعني بيدها لأسفل فأعود إلى مكاني وأسمع صوتها النائم يقول: نم..!

أنزلق تحت الغطاء مفتوح العينين أتسمع دبيب الأقدام في الحارة وأسمع همهمة الأصوات فأتصور أشكال العفاريت وهي تلعب خلف صفوف البلاط المرصوصة إلى جوار البيت لتجف وأفكر في أنها ربما تعثر

على الكرة حيث سقطت هناك وتأخذها لنفسها فأنادي باكيا: أمي..!!

لكنها لا تجيب..

وأحس يد أبي ترفع الغطاء من فوق وجهي وصوته الخشن يسألني:

«الم تنم بعد؟!».

يسحبني نحوه.. لكنني أتشبث بصدر أمي.. ويدوي في أذني صياحه عندما يثور ويطل الشر من عينيه فيركبني الخوف وأجدني مضطراً إلى الهرب من وجهه والاختباء تحت السرير أو داخل سندرة الحمام معطيا أذني وقلبي يدق لصوت خيزرانته وهي تضرب قرص المائدة وظهور الكراسي تتوعدني إذا لم أظهر..

يمسح أبي بكفه الكبيرة فوق رأسي الحليقة وأسمع تنفسه في الظلام فأحس شيئا من الاطمئنان لوجودي إلى جوار هذا الرجل القوي وأطل برأسي من تحت الغطاء أتنفس الهواء البارد وأتلفت حولي في ظلام الغرفة.. ويأتيني صوت أبي:

«هل تريد الذهاب للحمام؟».

أهز رأسي نفيا مسيطرا على رغبتي الأكيدة في الذهاب.. وأحس ساعده القوي يضمني إليه فأستكين في مكاني وعيناي لا تفارقان ظل معطفه وطربوشه على الحائط..

تخنقني رائحة التبغ المنبعثة بشدة مع أنفاسه الساخنة التي تلفح وجهي وأفضل عليها رائحة اللبان البلدي من فم أمي وأتذكر ما قاله وأكده لنا الولد سيد وأقسم عليه برأس أبيه بينما نحن نجلس فوق كومة الرمال التي أفرغتها العربة صباح أمس أمام بيت الشيخ طه مبيض النحاس وكان الظل يرتفع أمامنا فوق جدران البيوت وحرارة الجو تبرد حولنا حين ذهبت الشمس بعيدا هناك فوق «ميت عقبة».. وبدأت بعض اللمبات تضيء عتمة بعض البيوت..

قال سيد وهو يدفن كفه في الرمل البارد إنه سمع حديثا بين شقيقه الأكبر طالب الثانوي وبعض أصدقائه الكبار يؤكدون فيه أن العفاريت تطلق في تنفسها النار من أنوفها..

يقشعر جسدي فأبعد وجهي عن أنفاس أبي وأهـزه من بعيد:

«أريد الذهاب للحمام».

أستجمع شجاعتي وأقترب من وجهـه وأهـزه مـرة أخرى في إلحاح:

«أريد الذهاب للحمام».

يقف أبي أمام الباب مستندا بمرفقه إلى الحائط رافعا اللمبة أمام وجهه مغمض العينـين ينتظـرني صـابرا حتـى أفرغ فأمد له يدي ونسير عائدين إلى الفراش لكنني أنفلت منه وأسبقه وأقفز صاعدا من جديد إلى حضن أمي وقبلـه أتكور في داخله فتتحرك مفسحة لي وله مكانا إلى جوارهـا وتمد يدها تبحث عن الغطاء لتحكمه حولي..

أسمع شخير أبي بعد قليل فأظل مـستيقظا أفكـر في ذلك العفريت الذي يخطف الطواقي مـن فـوق الـرءوس كما حكت لنا نازك عن ذلك اليوم الذي ذهبوا فيه لحضور الليلة الكبيرة لمولد «سيدي إسـماعيل الإمبـابي» وخطـف العفريت طاقية شقيقها فتحي بينما كان يعـبر حقـل الـذرة

إلى جوارها أمام خيمة المولد.. وظل فتحي طول الليل ملتصقا بجانبها يبكي حتى نام.. وفي اليوم التالي لم ينزل ليلعب مع الأولاد في الحارة واكتفى بالنظر إليهم من فوق.. يطل عليهم.. ويختفي كلما سألوه هازئين:

«أين راحت طاقيتك يا فتحي»..

ضحكت في سري لمنظر فتحي الخائف..

لكنني عندما تذكرت كرتي التي لابد أن العفاريت سرقتها الآن لتلعب بها امتلأت بالغيظ وهممت بأن أطل عليها من النافذة دون أن تراني لكن الخوف يمنعني وأروح أفكر كيف أفتح النافذة دون أن تحس.. في النهاية قررت أن أنتظر حتى أرى نور الصبح فوق حائط ورشة بلاط الحاج صاوي المقابل للنافذة.. وأسمع صوت الريس بيومي وهو يحل جنزير دراجته لأنفذ فكرتي قبل أن يستيقظ باقي الأولاد ويعلموا الحكاية..

أعجبتني الفكرة فابتسمت وسحبت الغطاء فوقي.. وتمددت أنتظر لحظ التنفيذ..

الأطفال يلعبون في الحديقة

يتسلى الظل في هذه الفترة من النهار بتسلق جدار منزل الريس طنطاوي. كعنكبوت ضخم يظل يزحف صاعدا يرتقي الطوب الأحمر الذي كتبنا أسماءنا فوقه بقطع الطباشير البيضاء. أرقب بقلب مبهور مخالبه الدقيقة تنهش حروف الأسماء حتى تغيب داخله لكنه لا يكف عن التقدم مقتربا من اسم حاتم – أطولنا – المكتوب فوق أسمائنا، أتعجله أن يلتهمه أيضا حين تلوح من عند رأس الشارع سيارة عمي السوداء اللامعة، تدور مع المنحنى لتقف أمام دكان عم مرزوق البقال.. هناك عند الناصية..

أميل، فأرى عمي يهبط منها، يغيب جزء من جسمه الضخم خلف إعلان الكوكاكولا وبعض المكانس وأدوات المطبخ لكنه يعود ليطل ملوحا لي من بعيد بورقة الشيكولاتة الملونة فانسحب من النافذة لأقفز داخل غرفة المسافرين منطلقا في البيت أملأه زياطا، وأدور بين الغرف أصيح معلنا خبر قدومه، وأعود لأتسلق الأريكة مائلا

بنصف جسمي خارج النافذة أشاهد عربته وهي تستقر تحت نافذتنا وقد راح الأولاد يغمسون كسلهم بالدهشة بينما هم يتجمعون حولها يرقبون حديدها اللامع وزجاجها الذي انعكست عليه ألوان الغسيل المتأرجحة فوق حبال آخر النهار، ويشيرون إلى عجلاتها التي تترك خلفها دائما نقوشا متعرجة كثعابين صغيرة تزحف فوق أرض الشارع المرشوشة دائما في تلك الفترة من النهار..

وقف أبي بجلبابه الأبيض في فتحة الباب الحديدي الكبير فاتحا ذراعيه. درت بسرعة أهبط الدرجات القليلة إلى الباب لأقف خلف أبي تماما. حملني عمي بين ذراعيه ومضى يصعد الدرجات إلى جوار أبي وهما يثرثران.. تقدم أبي يفتح باب غرفة المسافرين.. أنزلني عمي وهو يهمس في أذني «اطلب لنا قهوة» فأنطلق إلى أمي أطلب القهوة وأعود بسرعة..

تحت النافذة المطلة على الشارع جلس عمي فوق نفس الأريكة التي يجلس عليها كلما جاء. أسند ذراعه إلى الوسادة الصغيرة التي تفصله عن أبي. دس يده الثانية في جيب سترته الداخلي وأخرج ورقة الشيكولاتة مشيرا بها

نحوي فتركت مكاني عند الباب وأسرعت ألتقطها منه، ربت فوق كتفي ثم أخرج منديله الكبير المتلوع دائما بالبقع الصفراء الكبيرة وراح يمسح فوق رأسه ووجهه، فانتشرت حولي رائحة سعوطة التي أحبها.. طوى المنديل وألقاه إلى جواره وراح يفتش في جيوبه عن علبة السعوط المعدنية المستديرة..

خلف زجاج الباب المنقوش بأوراق النباتات المدببة الغائرة بان خيال أمي تحمل صينية القهوة النحاسية الكبيرة. بعيني رحت أتحسس أنصاف الدوائر المتصلة حول محيطها وألاحظ مجمع البن والسكر وموقد السبرتو وفناجين القهوة وأطباقها البيضاء الصغيرة وكوب الماء البارد الكبير فوقها..

قام أبي خلف الباب. وقف برهة يتحدث إلى أمي همسا. ابتعد ظل أمي عن الزجاج فأنزل عمي عينيه وراح يسألني عما أفعله الآن..

قلت مباهيا إنني أرسم. قال عمي:

- عظيم.. وماذا ترسم؟

قلت إن الأستاذ أعطانا درسا نرسمه عن الأطفال الذين يلعبون في الحديقة..

هز عمه رأسه شاردا وراح يغمغم:

- عظيم.. عظيم..

عاد أبي حاملا صينية القهوة ووضعها فوق الوسادة بينه وبين عمي وقال من خلف ابتسامة بدت لي غريبة إن أمي كانت فقط تسأل عن بعض الأشياء الخاصة..

قال عمي وهو يفتح مجمع البن دون أن يلتفت إليه:

- مفهوم.. مفهوم.

فتحت كراسة الرسم فوق المساحة الخالية إلى جوار عمي، ورحت أرسم الأشجار فيما كان عمي يشرح لأبي بحماس - ككل مرة - كيف تصنع القهوة الجيدة على نار هادئة بينما هو يقلب الماء برفق فوق النار..

أخرج عمي من جيبه ورقة مطوية فردها أمامه وراح يتطلع إليها. قلبها بين يديه ثم راح يعدل الفناجين المقلوبة فوق أطباقها ليصب القهوة، ناول أبي فنجانه ثم ناوله الورقة ليقرأها بينما راح يرشف من فنجانه ببطء..

نظر أبي إلى الورقة طويلا. قلبها بين أصابعه ثم أعادها إليه..

أخرجت ورقة الشيكولاتة من جيبي أتأمل شكل الغزال المرسوم عليها وأدور بإصبعي فوق ظهره ثم أرفع الورقة إلى وجهي أتحسس نعومتها وأدفع قطعة الشيكولاتة الملفوفة داخل الورقة الفضية اللامعة إلى الخارج لأنظر إليها ثم أعيدها إلى مكانها بسرعة..

قال أبي وهو يهز رأسه: طيب! فأخرج عمي رزمة من النقود المطوية فردها بين يديه وراح يعدها ثم ناولها لأبي الذي كان قد أخرج حافظته في تلك اللحظة وراح يضع أوراق النقود فيها..

تركت كراسة الرسم واقتربت من أبي أتأمل شكل النقود برسومها الغريبة.. كان أبي يضع الأوراق الكبيرة معا ثم يجمع الأوراق الصغيرة إلى جوارها بادئا دائما بالورق الجديد. ملت بوجهي أتشمم رائحة النقود فدفعني أبي بعيدا فترنحت للخلف لأسقط بين يدي عمي الذي كان قد انتهى من رشف قهوته الآن..

نظر عمي نظرة عتاب طويلة إلى أبي الذي أطرق بوجهه إلى الأرض..

قال أبي بعد فترة إن «الهانم» كانت تريد أن تكلمه.. «خيرا» قال عمي، فرد أبي بعد تردد «خيرا».. وأضاف بعد صمت «إنها فقط مسألة المصاريف التي.. أنت فاهم.» ..

أخرج عمي الورقة من جديد وراح يشير إلى الأرقام المكتوبة فيها ويرسم خطوطا تحتها بالقلم في يده وأبي يتابعه وهو يهز رأسه قائلا بصوت خفيض «مفهوم.. مفهوم.. لكنها..» .. قاطعه عمي «فيما بعد..» .. ونهض واقفا فنهض أبي.. عاودتني في تلك اللحظة نوبة السعال التي كانت تأتيني كل مساء فالتفت عمي نحوي وقد اتسعت عيناه بشدة. قال وهو يشير نحوي «الولد يسعل» قال أبي بقليل اكتراث «في المساء فقط!.» وأضاف موضحا «قبل أن ينام.. كل ليلة».. مسحت أنفي وفمي بظاهر كفي وملت من جديد فوق الكراسة وقد انشغلت في رسم الأطفال الذين يلعبون في الحديقة..

قـال عمـي مؤنبـا «ولمـاذا لا تغلـون لـه ورق الجوافـة؟».. صـحت وأنـا أقـذف بـالقلم فـوق الأريكـة «لست أحب ورق الجوافة.. أكرهه لأنه مر»..

مال عمـي يحيطني بذراعـه وقـال بـصوت هـادئ «كانت أمنـا تغـلي لنـا ورق الجوافـة».. ثـم التفـت إلى أبي الذي كان يقـف تلـك اللحظـة تحـت مـصباح الكهربـاء العاري تماما في منتـصف الغرفـة وقـال:«ضـع لـه بعـض السكر فيها»..

هز أبي رأسه موافقا..

بان خيال أمي من جديـد خلـف الزجـاج المنقـوش فسمعتها تقول «ولماذا لا يذهب الولد إلى الطبيب؟»..

قال عمي وهو يقف «الأطباء لا يعرفون شـيئاً هـذه الأيام..» .. ثم حاول الابتسام..

واصلت أمي بصوت بـدا جافـا غـير ودود «ولمـاذا يذهب ابنك إلى الطبيب.. هه؟»..

قال عمي بصوت مخطوف وهو ينظر تجـاه أبي «إنهـا أخته كما تعلم.. هي عنيدة ولا تـسمع لأحـد رأيـا.. منـذ ماتت الغالية أمها ونحن نوافقها..أنت فاهم طبعا!!» ..

هز أبي رأسه من جديد وقد بدا عليه فيما لاح لي شيء من التأثر.. مددت يدي أجذب سترة عمي الذي التفت نحوي. قلت: «ارسم لي شجرة جوافة»..

قال عمي وهو يزيح كفي بعيدا «إنها شجرة كأي شجرة.. الفرق في الأوراق فقط وهذا لا يهم»..

قلت في إصرار وقد بدأت أحس بالضيق في صدري « ارسم لي شجرة جوافة الآن»..

قال أبي يزجرني «عمك مشغول.. سيسافر الآن..»..

رحت في نزق أضرب بالقلم فوق الصفحة في كل اتجاه مشوها ما رسمت..

قال عمي موبخا «إذا فعلت هذا مرة ثانية لن أحضر لك معي شيكولاتة بعد ذلك»..

أخرجت ورقة الشيكولاتة من جيبي وطرحتها في ركن الغرفة قائلا وعيناي في الأرض «لست أحب الشيكولاتة.. خذها.. أعطها لابنك»..

صاح أبي يزجرني «ولد!» ..

قال عمي «دعه».

ثم استدار ناحية باب الخروج..

قالت أمي من خلف الزجاج «في المرة القادمة عندما تأتي.. تأتي بالحساب كاملا.. من فضلك»..

التفت عمي ناحية أبي ومازالت كفه على مقبض الباب.. نظر إليه نظرة صامتة ثم سحب الباب وخرج فهممت بالاندفاع خلفه لولا ذراع أبي التي أوقفتني.. تراجعت منسحبا للخلف في بطء ثم انطلقت أتسلق الأريكة، رافعا خشب النافذة بأقصى ما أستطيع مائلا بجسمي للخارج أتطلع إلى العربة مترقبا خروج عمي من الباب الحديدي الكبير..

كانت مساحة الضوء المنهمر من النافذة تفرش الآن مستطيلا يسقط فوق العربة ويقطع عرض الشارع متسعا عند نهايته فوق الجدار المواجه فتبدو أسماؤنا تحته كحشرات نائمة أفزعها الضوء الذي سقط عليها فجأة، انحنيت بجسمي مستديرا تجاه الباب. كان عمي يقف هناك في الظلام مستندا بكفه العريضة فوق زاوية الحائط

وقد مـال بجـسمه كلـه للأمـام وراح يفـرغ مـا في جوفـه بصوت مكتوم. بعد قليل توقف ثم أخرج منديلـه الكبـير ومسح فمه ثم كوره وأعاده إلى جيبه..

بدا جـسمه واضـحا وهـو يـترك مكانـه في الظـلام مقتربا من العربة. توقف قبالة النافذة لحظة ثم رفـع رأسـه نحوي قبل أن تغيب داخل العربة فاستطعت أن ألمح تحت النور شيئاً في عينيه يلمع..

فهرس